كلمته .. رد عليها بصدى صمته .. عزفت له بأناملها لحن الوجود على يده .. سحب يده ، وغنى لها نشيد العدم .. قطفت إبتسامة وأهدتها له بشفتيها .. نزع أوراقها وداسها بقدميه .. وجرى منها .. فجرت وراءه .. وطاردته بحقدها لتشفى غليل وحشتها .. فهو رجلها وأنسها .. فراوغها وزاغ منها .. فوحشته هي أناه وأنسته .. فتشاجرت مع ظلها .. فسحق الحب مقاومته ، وأشفق عليها .. وودع أنس وحشته ، وارتمى فى وحشة أنسها .. بغل ما بعده غل .

ليليان

بدمي أحبك وبقلبي أبغضك!

بعد ثلاثة شهور زواج ضجرت سونيا من حياتها فى الريف مع زوجها .. فأخذ هاليون تولستوى إلى موسكو .. واستمرت معارك حبهما الضارية ، ومعها تبادل نيران الغيرة .. ومما زاد من شدة القتال ولعها بالحقيقة .. فقد سمح كل منهما للآخر بقراءة يومياته ليعرفه على حقيقته ، بخباياه ودقائقه .. والحياة الزوجية مجاملة ، والحقيقة لا تقبل الحالات .. وتعذب تولستوى من صدق زوجته ، وتعذبت سونيا من صدقه .. وتعاركا بصدق .. وتصالحا بصدق .. ثم ضجرت سونيا من موسكو ، واشتاقت إلى الريف ، حيث يعيش زوجها لها ومعها ، بعيدا عن أصدقائه وشرهم .. كما ذكرت فى الأسبوع الماضى .

كلمة الحياة

وعاد تولستوى وسونيا إلى عزبتهما فى أوائل فبراير .. ومشت سونيا فوق تراب الأيام بفخر وذل ، وأمل وخوف .. فهى لم تعد لها بلا هم ، ودما يسيل بحرية ، فى أحشائها جنين تريده ولا تريده ، تريده لأنه زهرة الحب الزواجى ، ولا تريده لأنه فيروس الحب الجنسى .. وهى تلومه لأنه تسلل إليها بلا رغبة منها ، وبصمت ملون بألوان الفجر احتل احشاءها ، وسبح فى بحر لبه فوق أمواج حياتها ، وبلا إذن منها التصق بلحمها ، وارتوى من دمها .. وفى أول الأمر ثارت عليه بكل جسدها ، وتمردت على تطفله عليها ، إلى حد الغثيان والقئ .. ولكنه تشبث بها بيديه ورجليه ، وتكوم بداخلها ، وجفونه مغلقة على حلم ثمين .. وتوسلت إليه أن يريحها من حمله الثقيل .. فسمعها وسكت ، وتظاهر بالبكم .. فهو يعرف أنها رغم صوتها اللعلع لا تستطيع أن تنسف صمته .. فازداد غثيانها .. فازداد تشبثه بها .. فهو يعرف أنها تحبه وتبغضه .. ويعرف أن البغض اسم من أسماء الحب العديدة .. ويعرف أنها تبغضه لأنه يسحبها كما هى تسحبه ، ويملكها كما هى تملكه ، ويراها كما لن ترى أبدا نفسها .. ويعرف أن أكثر ما يغيظها فيه ، أن له أذنين قويتين ، يسمع بهما ما تقوله قبل أن تقوله ، ويشرب بهما أفكارها وخواطرها ، ويلتقط برادارهما رغباتها المكونة فى ينبوعها .. فهو يعيش بها ومنها ومعها ، على إيقاع أنفاسها ، وأنغام أحزانها وأفراحها ، وأحلامها وآمالها .. فى حين تجهل هى كل شىء عنه .. فهو قريب منها بل جزء منها ، وفى ذات الوقت بعيد عنها ، بينه وبينها هوة الليل الأول وظلماته ، وهو يعرف أنها تحبه لأنه أول بذرة فى أرضها ، وأول زهرة فى بستانها ، وأول كلمة تكتبها بلحمها ودمها .. وهى كتبت هذه الكلمة حرفا حرفا بلغة قديمة قدم الحياة ذاتها ، ومتجددة كالحياة ذاتها ، وحية كالحياة ذاتها ، لأنها الحياة ذاتها .. والآن عليها أن تعلم كيف تفك خطوط هذه الكلمة وتقرأها .. ولأنها أمه فعليه أن يمحو أميتها ، ويزيل جهالتها ، فو عالم الأجنة ، يعرف كل جنين أن أول واجباته أن يزرع غريزة الأمومة فى دم أمه ، لأنها لا تولد بها ، ثم يترك شجرتها تنمو وتترعرع وتزدهر معه ، ليقطف هو ثمارها اللا نهائية ، ويشبعها ، ولا يشبع منها مهما أكل حبا وحنانا .

واستسلمت سونيا على مضض لحب جنينها لها وللحياة .. وتركت جسدها يتحدث مع نفسه ، ويحكى لنفسه قصة معجزة الحياة .. وانتظرت بقلق وتلهف نهاية فصل الليل وبداية فصل النهار .. وتركت الزمن يسيل برتابة من غير أن تفعل شيئا سوى النظر إلى الأشجار ، وهى تتوسل بأغصانها العارية إلى الربيع ، ليتستر عليها ، ويكسوها بأوراقه الخضراء .

وتولستوى يرى ويسمع ، ويحس ويتفعل بتقلبات الطبيعة .. وإذا لمح سحابة بيضاء بها بقع بنفسجية فهو يغسل بها عينيه .. وإذا قذفته شمس الغروب بألف ظل وضوء ، فهو يرتمى تحت أشعتها ، ويتمرغ فوق بحيل الشفق .. وإذا هبت الرياح الشمالية وصفعته على وجنتيه ، فهو يلتهم بشفتيه نفحات بردها ، وإذا اخضرت الأرض تبختر فوقها كالطاووس ، وعانق بذراعيه ألوانها الزاهية ، ومضغ بأنيابه عطرها الشهى .. وانتشى ثم أثمل سونيا بحنانه الأخضر .. وكلما سكر حبا مع زوجته يغار منه قلمه ، ويشرب زجاجة حبر ، ويترنح فوق الورق ، ويفضحه ويبوح بأسراره ويكتب :

« أول مارس ١٨٦٣ : سعادتنا رهيبة إلى حد أننا من شدة رعبنا جثونا اليوم على ركبنا وصلينا » .. ثم بعد أسابيع ترنح قلمه من السكر من جديد ، وكتب :

« ٢٤ مارس ١٨٦٣ : أحبها أكثر فأكثر .. اليوم ، وبعد مرور ستة شهور على زواجنا ، أحس وأنا معها بالخشوع .. لا أعرف كيف أصفها ، فهى تفوق كل وصف .. إنها عفيفة وطاهرة وطيبة .. إنها ما تزال فى نظرى « العذراء » بالمعنى الحقيقى والمجازى لهذه الكلمة .. أحس أنى لا أمتلكها رغم أنها تهب نفسها لى .. وربما لا أمتلكها لأنى لا أجرؤ على أن أمتلكها ، ولأنى غير جدير بها .. إنى شديد العصبية ، ولذلك فسعادتى غير كاملة .. هناك شىء يعذبنى : إنى أغار من الرجل الذى يستأهلها . أنا لا أستحقها » .

ثم مرت نوبة النشوة ، وأفاق قلمه السكران ، وصحا وفرك عينيه ، وتأهب للنضال .. إن أصدقاءه عايروه أثناء وجوده فى موسكو على تفرغه لإدارة شئون ضيعته وإهماله للأدب ، مما أدى إلى إصابة قلمه الخصب بالعقم .. وفكر تولستوى فى أن يكتب قصة أستاذ جامعى روسى تلوث ميكروبات الفكر الغربى مخه ، أو قصة زوج يقدس الحياة الأسرية فى حين لا تهتم زوجته بسوى الأزياء والرقص وشاعرية اللحظة العابرة .. ولكن قلمه لم يتحمس لا للفكرة الأولى ولا للثانية .. ففكر تولستوى فى كتابة قصة طويلة يروى فيها حكاية حصان مع الزمان ، ومن خلال توغله فى النفس الحيوانية يسلط الضوء على حرية الكائن الحى ، وحقوق السيد على العبد ، والظلم الكامن فى فكرة الملكية ، وحتمية نهاية كل حى .. وراقت الفكرة لقلمه .. فشجع تولستوى وسجلها .. « خولستومير » بطل الرواية حصان أبلق ، اشتهر فى دنيا الخيل بنور عقله وذكائه الحاد ، ورغم هذا فهو مهما عصر مخه لا يفهم أبدا كيف إن كائنا آخر حيا مثله ، يعتبره ملكه .. إن كلمة « حصانى » التى تقال عنه هو الحصان الحى ، تبدو له غريبة تماما ككلمات « أرضى » و« هوائى » و« ومائى » إن الرجال أمرهم عجيب حقا ، لقد

أفضل فيا يهم على أن نفس الشيء لا يمكن أن يقول عنه سوى شخص واحد عبارة «ملكى أنا» وتقتضى هذا الاتفاق . فمن يقول : «ملكى أنا» لأكبر عدد من الأشياء يكون أسعد الرجال .. والحصان يرى أن كل خلق الله ملك لله وحده ، ويتعذب من استعباد صاحبه له . وبعد حياة طويلة من الكد والعمل والخزى والشقاء ، يموت الحصان من غير أن يحقق أملا واحدا من آماله ، ولكنه كما أفاد الغير فى حياته ، أفادهم أيضا بعد موته ، فجثته تغذت بها ذئبة وصغارها .. أما صاحب الحصان الذى لم يفعل شيئا فى حياته سوى تنغيص حياة من حوله بكسله وخموله وفسقه وعربدته ، فحينما يموت يصرخ أهله لا على فراقه ، إنما من نفقات كفنه ونعشه وجنازته ودفنه . وبعد أن تتوارى جثته فى التراب «لا يستفيد أحد لا من جلده ولا من لحمه ولا من عظامه» كما يقول تولستوى بعنف مأساوى . فالحصان رغم ذلك كان مصيره فى الحياة والموت أفضل من مصير سيده .

ثم تتاعب القلم وارتمى بإعياء على المكتب ، ورفض أن يجرى ويشق فوق الورق حرفا من أن يموت كالحصان .. فوضع تولستوى فكرة قصته فى درج مكتبه ، وتركها تختمر فيه اثنين وعشرين سنة .. فلم يكتبها إلا فى عام ١٨٨٥ .. واكتفى بمراجعة روايته «القوزاق» .

تافه ولكن عبقرى !

وبراعته الفائقة فى إلقاء اللوم على غيره ، حمل سونيا مسئولية نكسة قلمه .. ونسى أنه منذ سنين لم يكتب شيئا ، وتذكر خيبة قلمه بعد زواجه .. وقلمه معذور ، وهو أيضا .. فكيف يكتب وظل سونيا لا يفارق ظله ، وأنفاسها فوق أنفاسه .. إنه عاش طوال حياته فى أنس وحشته ، لا صديق له ولا أنيس سوى نفسه .. والآن تشاركه حياته امرأة تقيد حريته ، وتشل فكره ، وتلجم خياله .. وبينه وبينها أسلاك المثل الشائكة ، التى تعلو وترتفع كلما تقدمت فى حملها .. إنها لا تكف عن التأفف والتأوه والتململ .. فإذا لاذ بحجرة مكتبه ، ولم ينتج شيئا تلومه ، لأنه لم يحرث بقلمه الورق .. وإذا حمل بندقيته على كتفه ، وخرج مع كلابه ليصطاد ، تتهمه بأنه يحب كلابه ولا يحبها .. ومن يعلم فربما ودت أن تكون كلبته لتجرى بين رجليه ، وترقد تحت قدميه فى البيت وفى الغيط .. وإذا تأخر فى العودة إليها تنتظره وجبينها على زجاج النافذة ، والدموع على خدودها ، والشكوى على لسانها .. وإذا جلس إلى جوارها تتسول كلمة منه .. وإذا أشفق عليها ورمى لها كلمة حلوة ، يتوقف زمانها كأنه هو أول لحظة فى وجودها ..

إنها تتفانى فى حبه ، وتعيش به وله ، وهو سعيد بذلك ، يريدها أن تكون له بكل كيانها ، بشرط ألا يكون هو لها ، يريد أن يعيش معها بشرط أن يظل وحده مع وحشته ، يريدها أن تكون رمزا لمرور الزمان ورتابة الأيام بشرط ألا تضجره برتابة دقات أنفاسها ولسانها .. باختصار يريدها أن تكون دائما إلى جواره بشرط ألا يحس بوجودها !..

ويا ويل من يحب امرأة ويتزوجها .. هى تختنق تحت فستانها ، وهو يختنق تحت جلده .. واسأل الزوج ولا تسأل العازب .. إنه على يقين من أن موهبته وعزيمته وذكاءه وذاتيته سوف تذوب فى هذا الجو الزواجى الخانق .. وصرخ قلمه :

«٢٣ يونيه ١٨٦٣ : أين ذاتى ؟ أين هو هذا (الأنا) الذى كنت أحبه وأعرفه .. نادرا ما ينبثق نوره الآن ، ويتشرق الخارج بجلال رهبة وفرحة .. إنى تافه وصغير وحقير .. والأدهى والأمر أنى أصبحت كذلك منذ تزوجت امرأة أحبها .. معظم ما كتبته فى هذه الكراسة كذب وزيف .. فكرة أنها ما تزال هنا ، تقرأ من فوق كتفى ما أكتبه ، تقيدنى وتخنق حقيقتى . لابد أن أضيف بضع كلمات لها ، لأنها ستقرأها .. شىء بشع ورهيب أن يربط الإنسان سعادته بظروف مادية : زوجة وأطفال وصحة ومال» .

وقرأت سونيا هذه السطور الموجهة لها ، واندلعت نيران الثورة فى دمها ، وحاصرت بلهيبها أحشاءها .. وخافت حينها أن تموت حرقة قبل أن يولد ، ويتحسس طريقه وسط الظلمات ، ويطرق بعنف باب الحياة .. وسحقه الأرض ، واستجابت لندائه ، وانشقت .. وأنجبت سونيا لتولستوى أول طفل لها يوم ٢٧ يونيه .. وسماه «سيرج» على اسم عمه .

ماذا هذا الطفل ؟ من هو ؟ من أين جاء ؟ ! أسئلة تولد مع كل مولود ، وتموت من غير جواب .. واندهش تولستوى ، لأنه لا يحس لا بالسعادة ولا بالفخر لكونه أصبح أبا .. إنما يحس فقط بالخوف .. فظهور هذا الطفل ظهرت فى حياته «منطقة خطر جديدة» تهدد حريته وقلمه وعمله .. إن ابنه هم جديد ، وغل جديد ، يضاف إلى همومه وأغلاله .. لعل الميزة الوحيدة فى ميلاده أن سونيا ستنشغل به .. فتهمله .. فيرتاح من طغيان حبها .. وهو على استعداد لأن يحبها حب العادة إذا قامت بواجباتها كأم على خير وجه .. وأول واجبات الأم أن ترضع طفلها بنفسها .

وسونيا تؤيده فى هذا الرأى ، رغم أنه فى الوسط الأرستقراطى الذى نشأت فيه ، جرت العادة أن تترك الأم هذه المهمة لمرضعة .

وبحنان غذت سونيا طفلها بلبن الحنان .. ثم ظهرت تشققات فى حلمتى ثدييها ، فصحبتها آلام مريعة عند الرضاعة ، وبناء على أمر طبيبها توقفت عن رضاعة طفلها .. وباسم الطبيعة ، وباسم الفيلسوف روسو ومبادئه ، ثار تولستوى على زوجته ، وعلى طبيبها الذى يتحجج بحجج واهية ، تمنع أما من أن تؤدى واجبها .. فمن تهب الحياة تهب لبنها ، حتى لو أدى ذلك إلى عذابها ، وسيلان دموعها مع سيلان لبنها .. وحينما أحضرت سونيا مرضعة رفض تولستوى أن يدخل حجرة الطفل حتى لا يرى إبنه ووريث اسمه ، معلقا فى صدر امرأة غريبة .. لماذا لا تقدر الكونتيسة تولستوى على القيام بما تقوم به فلاحة من بنات الشعب ؟

وبصبر كظمت سونيا غيظها .. فهى تريد أن تنسجم بمباهج الأمومة ، وتعيش فى سلام ولو مرة فى حياتها الزوجية ، وأصر زوجها على مواصلة شن الهجوم عليها .. فاضطرت إلى الدفاع عن نفسها ، لكيلا تموت غيظا ، وييتم ابنها ، وتدخلت تانيا أختها التى جاءت لقضاء أيام معها ، وأخفقت فى فض الاشتباك ، وتصاعد القتال على جبهة الرضاعة .. ووصلت أخبار المعارك إلى موسكو .. وثار الدكتور بيرز على زوج ابنته ، وإصراره الأحمق على إرغامها على شىء لا تقدر صحيا عليه ، وكتب إلى الزوجين : أنت مجنون ، وأنت أيضا مجنونة : سونيا يا صغيرتى العزيزة كونى عاقلة كما عرفتك دائما ، اهدئى يا ابنتى ، كل مشكلة ولها حل ، لا تهولى الأمور ، وتجعلى من الحبة قبة .. أما أنت يا صديقى العزيز ليون نيكولايفيتش ، فتأكد أن تكوينك يختلف عن تكوين الفلاح ، طبيعتك تختلف عنه ، ومهما قلت وفعلت فلن تصبح أبدا فلاحا ، واعرف أن زوجتك أيضا بحكم تكوينها وطبيعتها لن تتحمل أبدا ما تتحمله فلاحة .. وأنت يا تانيا ، لا تفارق أختك الحمقاء لحظة ، واشكيها كلما تصرفت بحماقة ، واصفعى ليون على رأسه بأى شىء يقع تحت يدك ، كى يتعلم أن يكون أكثر ذكاء .. إنه أستاذ فى الأدب والكلام ، أما فى الحياة فهذا شىء آخر .

فليكتب قصة يعذب فيها زوج زوجته المريضة ويرغمها على رضاعة طفلها ، وسوف ترجمه كل النساء بالطوب .

ولكن لا خطاب حميه ، ولا دموع سونيا ، ولا توبيخات تانيا الرقيقة ، أفلحت فى إخماد ثورته الحمقاء .. وأصبح لا يرى زوجته من غير أن يرى فيها كل عيوب الدنيا .. وفى يومياته التى تقرأها أسماها «الكونتيسة» ليغيظها ، وكتب بقلمه الغاضب :

«٥ أغسطس ١٨٦٣ : فى الصباح أتوجه إلى الكونتيسة ، والفرحة فى عينى ، والابتسامة فوق شفتى .. وأجدها تجلس أمام المرآة ، ودونياشا وصيفتها تسرح لها شعرها ..

تراني فتقبلنى بحنان .. ثم فجأة تصرخ فى وجه دونياشا ، وبلا سبب تنهال عليها سبا وشتما .. وبالشتائم تقصدنى أنا طبعا ، فأنسحب ومعى غليلى .. انهارت أحلامى .. انتهى كل شىء .. أخاف من كل شىء ، يبدو أن لا سعادة لى إلا فى الوحدة ، ولا شاعرية فى خيالى إلا وأنا وحدى مع نفسى . الساعة الآن الواحدة بعد منتصف الليل .. أريد أن أنام ولا أستطيع .. صدرى يضيق ويضيق .. أختنق .. أود أن أذهب إلى حجرتها ، وأنام إلى جوارها ، إنها الآن تحلم وتشخر بهدوء ، ولكنها إذا أحست فى فسوف تستيقظ بفرحة ، لأن أذلى معها ، وسوف تطرينى بموال أنينها ، وتشكو من ظلمى لها وتعاستها معى .. والأمر أنى يجب أن أسكت ، وأخرس ، وأتحملها» .

وسونيا من ناحيتها لا يسكت قلمها ، ويتكلم ويصرخ ، ويقول :

«٧ أغسطس ١٨٦٣ : من جديد أسمعنى موال الرضاعة .. الأم التى لا ترضع طفلها وحش بلا قلب ، وتستحق الموت .. من قال العكس ؟ .. ولكن ما العمل إذا كانت هناك استحالة جسدية .. إنه يريد أن يمحونى من على وجه الأرض ، لأنى أتعذب ، ولأنى لا أقوم بواجبى .. وأنا لا أطيقه لأنه يتعذب ، ولأنه يكتب .. أمن الممكن أن تحب ثعبانا يلدغنا ؟ .. أمن الممكن أن تحب ذبابة لا تكف عن أذيتنا ؟ .. سأرعى ابنى ، وأفعل من أجله المستحيل ، لا لسواد عينى ليوفوتشكا الذى يستحق أن أقابل شره بالشر ، إنما لأنى أحب ابنى» .

ثم بح صوت قلمها .. فأراحته حتى نهاية السطر .. فقفز من نفسه إلى السطر التالى ، وذاب حبره حنانا .. وراح يقطر عسلا :

«المطر يتساقط .. أخشى أن يصاب بالبرد .. لم أعد ثائرة عليه .. أحبه .. فليحفظه الله» .

وبمجرد أن قرأ تولستوى هذه السطور ، انقلب حاله ، واعتدل مزاجه ، وذاب عناده .. وطرد دمه ميكروب الحقد الأسود ، وتغذى فيتامينات الحب الأخضر .. وكتب على نفس الصفحة فى يوميات زوجته :

«سونيا سامحينى .. كنت جلفا جافيا .. ومع من ؟ .. مع أعز مخلوقة لدى فى الدنيا ، مع من أعطتنى السعادة التى لم أكن أحلم بها ، مع من تحبنى بكل كيانها .. سونيا : حبيبتى ! .. أنا مذنب ، ولكنى أيضا بائس .. بداخلى رجل طيب ، أحبيه ولا تلوميه ، حتى إذا تجاهلك» .

ولكن الأذية طبع .. والطبع أغلب .. وذيل الكلب لا يعتدل أبدا .. والزوج الشكس يموت وهو يشاكس زوجته .. وشاكس تولستوى سونيا فى نفس اللحظة ، وبغل شطب السطور التى كتبها .. فكتبت سونيا تحتها :

«كنت أستحق هذه السطور التى تفيض حنانا وندما ، ولكنه فى لحظة غضب شطبها ، قبل أن أقرأها» .

وبحث تولستوى عن أى شىء ليتحجج به ويهرب من بيته وعزبته وروسيا بأكملها .. ونظر إلى خريطة العالم ، ورأى نيران الثورة مشتعلة فى بولندا .. فرصة لا تعوض .. إلى الأمام سر .. سيتطوع ، ويحمل السلاح ، ويشعل الثورة .. ولكن هذه الثورة قامت من أجل الحرية التى يعشقها ، وضد الدكتاتورية التى يمقتها .. لا يهم .. إنه على استعداد لأن يقتل كل أحرار بولندا .. بل كل أحرار العالم ، من أجل أن يهرب من سونيا ، وسواد عيني سونيا .

واحتفظ بسره فى صدره ، حتى يرسم بدقة خطة هروبه .. فاختنق .. فصدره منذ كان جنينا فى بطن أمه لم يحتفظ بسر واحد .. ما العمل ؟ .. أن يبوح بسره لصديقه الكونت الشاعر «أفاناسى فت» .. وهذا ما حدث .. أما يومياته فلم يقل لها شيئا .. أهو عبيط يفضح نفسه بنفسه ؟ ولمن ؟ .. لزوجته حبيبته اللدود ، التى يريد أن يموت حبا بين ذراعيها .. بل التى من أجلها يريد أن يدافع عن كل حكم دكتاتورى فى الكون ، ليتخلص من سجن عينيها وذراعيها .

بقى الآن أن يقنع سونيا بحبه وبخضعه لها .. وقراره العظيم بأن يفدى الدكتاتورية بدمه ، ويسبح دم الحريات .. ولكن هذه حكاية أخرى يطول شرحها .